عقدة ثيودور هرتزل :
بين العم توم ودون كيشوت

أ. ن. سعد

ان كاتبي سيرة ثيودور هرتزل يتغافلون عن معالجة او حتى ذكر بعض العناصر التي تشكلت منها نفسية مؤسس الصهيونية وساهمت ، وربما ادت بشكل حاسم ، الى توصله الى الصهيونية التي صاغ مخططا لها على طريقته الخاصة . فحرصهم على استنباط الصفات التي ارتأوا انها ايجابية في شخصية هرتزل ، مثل تمسكه بالقضية التي تبناها واندفاعه وراءها ، جعلتهم يتجاهلون الصفات الاخرى التي قد لا تكون ايجابية ولكنها ذات مغزى هام في تفهم العوامل النفسية التي حددت هوية شخصيته ومسارها الى الصهيونية . وكما هي حال كل ما يتعلق بالمشكلة الصهيونية في فلسطين ، قد يبدو ضروريا الخوض في مناقشة هؤلاء الكتاب وجميعهم من الصهيونيين او المؤيدين للصهيونية . ولكن اهتمامنا هنا لا يقع في مثل هذا المنهج المتبع تقليديا الى حد ما ، بل سنقتصر معالجتنا على طرح وتحليل بعض الوقائع التي يمكن ايجادها بكثرة في كتابات هرتزل نفسه وخاصة في مذكراته الشخصية التي نشرت مؤخرا بكاملها في اربعة مجلدات كبيرة(١) ، والتي تحتوي على اشمل الدلالات والاشارات وادقها الى نوعية تفكير هرتزل وبنيان شخصيته . وسيجد القارىء في مجال هذه المقالة القصيرة ، ان استعمالنا لكلمة « عقدة » في العنوان اعلاه ليس من باب الاحكام المسبقة والشتائم التي قد يرسلها كاتب متحيز ضد الحركة التي يقال ان ثيودور هرتزل تزعمها . وان بدا ان البعض يمتنع عن النظر في حكم التعقيد على مؤسس حركة اثبتت تاريخيا قدرتها على تحقيق اهدافها بوجه جميع الصعوبات ، فعلينا التأكيد والتذكير بأن الانطباعات الحالية لا تحدد ، ولا ينبغي أن تحدد ، منظورنا لوقائع موضوعية تعود الى فترة ما قبل ثلاثة ارباع قرن من الزمن ، خاصة وان لدينا المصادر الوثائقية المباشرة والمتمثلة في اقوال هرتزل نفسه في مذكراته والتي هي بحد ذاتها ووحدها ، ادت بنا الى الاستنتاج بأن توصل هرتزل الى الصهيونية مثل آخرين من الصهيونيين ، كان تجسيدا وانعكاسا للتخبط النفسي .

العم توم اليهودي

ان شخصية العم توم معروفة جدا في الغرب وخاصة في الولايات المتحدة ، الا انها قد لا تكون معروفة بهذا القدر لدى القارىء العربي . وعبارة العم توم رائجة جدا اليوم اذ تستعمل للاشارة الى السود الذين يجهدون في تأييد النظام القائم والمؤسسة الحاكمة في الولايات المتحدة وتبرير ممارساتهما . وتعود هذه الشخصية التي أصبحت شبه ميثولوجية واسطورية الان ، الى رواية « **كوخ العم توم** » التي كتبتها الروائية الاميركية البيضاء ، هارييت بيتشرستو ، في شكل اقاصيص متسلسلة في احدى المجلات الاميركية في عامي ١٨٥١ ـ ١٨٥٢ قبيل الحرب الاهلية التي ادى انتصار الشمال فيها الى الغاء العبودية . وتحكي هذه الرواية قصة توم ، العبد الزنجي العميق الايمان بالمسيحية الذي يتفانى في خدمة سيده الابيض وفي الصلاة من اجله باستمرار الى ان باعه سيده عندما